الــطـبـيـعـيـة:

مرت بنا الإشارة إلى الطبيعية في الأدب وموقف مكسيم غوركي منها. ولا بد من أن تنتوقف عندها بعرض ولو سريع.

1- والحقيقة أن الطبيعية هي امتداد عمودي للواقعية. ولقد بدأ هذا التيار على يد أميل زولا الكاتب الفرنسي الكبير. وواصل هذا التيار تقدمه حتى كاد يصبح مذهبا فلسفيا وأدبياقائما بذاته.

2- كان هذا الإتجاه , وقبله الواقعية , ثورة على الرومانتيكية , ثورة استمدت اسبابها من طبيعة التقدم العلمي في القرن التاسع عشر زخاصة ذلك التقدم البيولوجي الذي تمثل في نظرية التطور.

3- فإذا كانت الواقعية قد اعتمدت على الملاحظة المباشرة لكي تصور الواقع على النحو الذي آمنت بحقيقته , فإن الطبيعية لا تكتفي بالملاحظة بل تستعين بالتجارب وألأبحاث العضوية والفيسيولوجية لمعرفة حقائق الإنسان العميقة وحقائق الحياة.

4- وبعد أن أبلغت الرومانتيكية الإنسان ‘لى مزقف البطولة , عاد العلم ليقرنه بالحيوان الأعجم ويصوره صغيرا خاضعاً للقوى المختلفة من حوله , ويعلمه أن الإنسان عبد للوراثة والبيئة.

5- وحين اراد ألأدب أن ينتحل هذا الموقف العلمي أطلق على المذهب الجديد إسم الطبيعية كما اشرنا فطبقه أميل زولا الذي كان يرى أن كتابة قصة تشبه القيام بتجربة في المعمل , فما على لبقصصي إلا أن يهيئ لشخصياته بيئة معينة ووراثة معينة , ثم يقف ملاحظاً تحركاتهم الأوتوماتيكية.

6- وقد صاغ أميل زولا هذا المنهج في عدة مقلات جمعها فيما بعد في كتاب اسناه " القصة التجريبية ". وهو في صياغة هذا المنهج كان تأثر بالواقعيين وبأنصار الفلسفة الوضعية وعلى رأسهم أوجست كونت , والنزعة العلمية الجبرية في نقد الأدب على نحو ما فعل الناقد " تين " الذي كان يرى في الأدب والأديب نتاجاً للأجناس والزمن والبيئة , وكذلك تأثر زولا بالمناهج التجريبية في الطب وعلوم الحياة وبخاصة بكتاب كلود برنار خالد الذكر المسمى : " مقدمة في دراسة علم الطب التجريبي ".

7- والطبيعية تسعى إلى تصوير واقع الحياة وطبيعتها وفهمها , ولكنها ترد هذه الطبيعة وهذا الواقع العميق إلى حقائق حياتنا العضوية وتأثير هذه الحقائق بل وسيطرتها على مافة مشاعرنا وأفكارنا وأخلاقنا وسلوكنا في الحياة.

8- ولعل في عنوان إحدى قصص زولا الشهيرة وهي " الحيوان البشري " ما يرمز إلى نوع النظرة التي ينظر بها إلى الإنسان وحقيقته. فهو في جوهره حيوان تسيره غرائزه وحاجاته العضوية.

9- وهذا اتجاه قد اصبح له في الفلسفة وعلم النفس الحيدثين أنصارعديدون , وهم اولئك الذي يقولون بأن حياة الإنسان الشعورية والعقلية ليست إلا ظاهرة ثانوية أو ظاهرة طيفيلة تسلقت على أصل الإنسان العضوي. ومن ثم فهي تابعة ومتأثرة بهذا الأصل العضوي.

10- وهم لا يعدمون أن يجدوا في ملاحظة حياة الإنسان العادية اليومية ما يؤيد وجهة نظرهم, إذ يلاحظون مدىتأثر مشاعرنا وأفكارنا وسلوكنا بحالتنا العضوية من الصحة والمرض والضعف أو القوة.

11- كل ذلك فضلا عن تقدم ألأبحاث والتجارب في علوم الحياة ووظائف الأعضاء والكيمياء العضوية , حيث تثبت هذه التجارب مدى تأثير جهازنا العصبي وغددنا المختلفة على مزاج الفرد ومشاعره وتفكيره وسلوكه وأخلاقه.

12- الطبيعية إذن ترجع واقع الإنسان وواقع الحياة وطبيعتها العميقة إلى الكائن العضوي وغرائزه وحاجاته وتبذل جهدها على أن تكشف الستار عن هذه الحقائق الدفينة , وأن تصورها في الأدب – خاصة في ادب القصة الذي يتسع لمثل هذا التصوير.

13- لكن اعتمادها على التجارب والأبحاث العلمية وتعميم نتائج هذه التجارب والأبحاث أدى في الغالب إلى اصطناع الحيوات التي تعرضها تلك القصص ورسم سلوكها في الحياة طبقا لمقتضيات المذهب ووفقا لمنطقه الذي يقوم على نوع من الجبرية العضوية التي تفسح للوراثة أكبر مجال.

14- في ضوء هكذا التزامات نرى أن أميل زولا يكرس جانبا كبيرا من حياته لكتابة قصص تتناول أسرة واحدة هي اسرة روجون ماكار ليؤيد بهذه السلسلة مذهب الطبيعية الذي دعا إليه , جامعاً بين تاثير الحياة العضوية وبين تكوين الشخصية البشرية.